## 13. أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي

**وصول المماليك للسلطة لأول مرة بعد معركة المنصورة :**

**بعد وفاة الملك الصالح وانتهاء معركة المنصورة ثم مقتل الملك توران شاه ابن الملك الصالح لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك علي أن يعلن نفسه سلطاناً نظراً لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب وشرعية الحكم لابد أن تأتي من الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، فلا يمكن آنذاك أن يتولي أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصياً وحتي وإن كان هذا إجراء رمزي إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية ، وحاجة المماليك تحديداً إلي هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم لأنهم يعرفون جيداً أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية ، لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقي السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتاً لحين حل هذه المعضلة ، فاتفقوا علي أن تتولي شجرة الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة إلي أن أرسل لهم الخليفة العباسي خطاباً ينكر عليهم تولية إمرأة الحكم فكان هذا اعتراف ضمني من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك (- وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة ولقب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر[164] التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يوماً )[165] ، وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسي حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات ، ولكن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك[166] ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة ، وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر ، وأحس الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلي قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي علي الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلي كل منهم كمبعوث للسلام (- ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين علي أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت**

---

[164] وهذا يذكرنا بالعصر الفرعوني عندما ينتهي نسل الذكور من الأسرة الفرعونية يقوم أحد القادة بالزواج من إحدي أميرات الأسرة ويؤسس أسرة جديدة حتي يجري دماء الفراعنة في نسله ، فشرعية الحكم في عهد الفراعنة مرتبطة بالدماء الملكية ، ولكن مشكلة المماليك أن ليس لديهم دماء ملكية فالجميع متساوون في النشأة والبيئة

[165] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج2 صفحة 115

[166] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج2 صفحة 116

الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره –)[167] وبهذا تم إضافة الشرعية علي الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً

**عندما يتساوي الجميع فمن يكون له الحق في العرش ؟**

في الحقيقة إن هذا السؤال هو أساس جميع الصراعات بين أمراء المماليك وهو سر التنافس علي السلطة فإذا كان أحد الأمراء يجلس علي عرش مصر ويري أمير آخر أنه الأحق بذلك يبدأ الصراع بينهما علي السلطة ولكنه صراع مرير ومغامرة كبري ولا يتدخل فيها الخليفة العباسي ، فمصر منذ عهد أحمد ابن طولون ثم الإخشيد ثم الفاطميين ثم الأيوبيين مستقلة بطريقة أو أخري عن الخلافة العباسية وارتباطها بالخلافة ارتباط رمزي لا يعني التبعية المطلقة كما كانت قبل عصر الدولة الطولونية ، أما فترة الحكم الفاطمي لمصر فقد كانت مستقلة عن العباسيين تماماً لاختلاف المذهب بل كانوا في حالة عداء دائم وحروب مستمرة ، فإذا استثنينا الفاطميين فإن باقي الدول التي تأسست في مصر سواء طولونية أو إخشيدية أو أيوبية ثم مملوكية بعد ذلك كلها كانت مستقلة ولكنها تتبع المذهب السني الذي كان يمثله الخليفة العباسي ، ويوضح الدكتور محمود الحويري مفهوم هذا النوع من الاستقلال فيقول (– الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية ، بمعني ألا يكون علي الدولة نفوذ غير نفوذ أبناءها ، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد علي مكانتها في المجتمع الدولي ، أما في العصور الوسطي ، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلي من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلي الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة ، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الحكم لأولاده علي الصورة التي يراها ، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكماً شرعياً علي البلاد التي يحوزها ، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية – – – وبمعني آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلي عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها – – –)[168] ، (– – ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه علي السكة ، كما دأبت مصر علي إرسال جزء من الخراج إلي بغداد عن طواعية ، تعبيراً عن انتماءها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية ،

---

[167] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج2 صفحة 116

[168] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 103 ، 104

**وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخري - - -)[169]**

**أهم ما يميز الصراع بين أمراء المماليك علي السلطة :**

**علي الرغم من أن الصراع علي السلطة في حد ذاته شئ بشع ومكلف للأموال والأرواح ويؤثر علي حالة البلاد والعباد إلا أن الصراع بين المماليك كانت له سمات خاصة وعجيبة ، منها أنه كان داخل مصر أو داخل الدولة المملوكية عموماً ولا يتم تدويله بإدخال عناصر من خارج الدولة لمساعدة أحد الأمراء للوصول إلي السلطة اللهم إلا إذا استعان بعض الأمراء ببعض شيوخ العرب والبدو أحياناً في بعض المعارك ولكنهم في النهاية مقاتلين لا يخضعون لسلطان دولة من الدول ، وبالتالي لم يتم التدخل في شئون مصر الداخلية من دول أخري نتيجة لهذا الصراع ، أما السمة الثانية فإن الصراع ينتهي بمجرد اختفاء أحد الأمراء المتنافسين علي السلطة سواء بالقتل أو السجن أو النفي أو التنازل ، وبالتالي لا يستمر الصراع بواسطة أنصاره بعد اختفاءه وهذا يحقن الدماء ويهدئ الأمور ، حتي أنك إذا قرأت عن أحد هذه الصراعات في بعض الكتب وتابعت باهتمام أعمال القتل والنهب والسلب والجرائم التي ترتكب خلال هذا الصراع قد تتمني أن يتم التخلص بسرعة من أحد الأميرين المتنافسين حتي تهدأ الأمور ، فكل أمير منهم يلتف حوله أعداد ضخمة من المماليك ويقاتلون بشراسة وبمجرد موته ينتهي كل شئ بشكل يدعو للدهشة ، كما يصفح الأمير المنتصر عنهم وتنتهي الفتنة ، أما السمة الثالثة من سمات هذا الصراع ابتعاد عامة الشعب عنه وعدم إقحامهم فيه إلا في حالات نادرة وكان كل أمير حريص علي رضا العامة عنه ليدعموه بالدعاء له بالنصر**

**كيف كانت تنتقل السلطة من سلطان إلي آخر في الأحوال العادية ؟**

**كل ما سبق لا يعني أن السلطة كانت تنتقل دائماً بعد صراعات وإراقة للدماء خلال العصر المملوكي فهذا هو الاستثناء حتي لو حدث كثيراً ولكن كانت بالتأكيد هناك قاعدة سلمية لتداول السلطة في العصر المملوكي وكلما اختلت يحدث الصراع ، وهذه القاعدة كانت تعتمد بشكل عام علي نظام الأقدمية فقد كان المماليك يحترمون الأقدمية جداً فهناك أمير كبير وهناك أمير صغير وهناك من تولي وظائف عديدة وخاض معارك طاحنة وهناك من لم يمر بعد بكل هذه الأمور وبالتالي كانت القاعدة العامة هي احترام مكانة وأقدمية كبار الأمراء ، ولم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (- ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس**

---

[169] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 104

الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم - - - فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أخذ عليهم من مواثيق وأيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك -)[170] ولم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلي مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده ، وعلي الرغم من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعداد خاص لذلك إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون

<u>علاقة الإنجازات بالأفضلية أثناء الصراع :</u>

عندما يعتبر أحد الأمراء أنه أفضل من غيره وأحق بالعرش من الجميع فلابد أن يثبت ذلك بتحقيق العديد من الإنجازات والانتصارات ، فإذا كان سلطاناً بالفعل وقامت عليه حركة عصيان ونافسه أحد الأمراء ليجلس مكانه ، أو شعر بمجرد وجود آراء حول حكمه للبلاد قد تثير الفتن والاضطرابات وتشجع من له طموح في منافسته ، عندئذ يحاول أن يثبت للجميع أنه الأفضل فيكثر من تحقيق الإنجازات في جميع المجالات سواء إقتصادية أو معمارية كما يشن الحروب علي أعداء الأمة ويحاول تحقيق النصر والمجد وكلما زادت حدة الصراعات تزيد الإنجازات علي ما يبدو ، فهذه الإنجازات لها العديد من الفوائد بالنسبة له ، فهي أولاً تجعل عامة الشعب في حالة انتعاش اقتصادي وتتوفر السلع بأسعار زهيدة مما يجعل الناس تتمسك به وتدعو له بالنصر ، أما ثاني هذه الفوائد أن أنصاره من المماليك والجنود الذين حوله ترتفع روحهم المعنوية بشكل كبير وتزداد شراستهم في القتال للزود عنه واستقرار عرشه ، كما أن كل ما يحققه من انتصارات وأمجاد ومكاسب تخفض الروح المعنوية لأنصار خصمه ولا يجد من يسانده إلا لمصالح شخصية ، فالإنجازات تجعل طبيعة الصراع للمصلحة العامة وليس للمصلحة الشخصية ، ومن هنا قد يكون هذا هو السبب في تزامن حدوث إنجازات مع وجود صراعات ، بل إن الصراعات التي لم تنتهي طوال عصر المماليك جعلت معها إنجازات لم تنتهي أيضاً إلا بانتهاء هذا العصر

وكان الأمير الذي يريد أن يجلس علي العرش يتخلص من خصومه ويعتبر نفسه الأقوى والأصلح للقيادة وأن القضاء علي الخصوم بالقتل أو النفي كان يعتبره من متطلبات الأمن القومي والاستقرار السياسي فقد يتحول بسهولة جداً اختلاف الآراء بين الأمراء إلي قتال شرس وعنيف وما يشبه الحروب

---

[170] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج2 صفحة 119

الأهلية[171] التي تدمر كل شئ لأن كل أمير توجد تحت سيطرته قوة لا يستهان بها طوع أمره وبالتالي لابد من أمير قوي يسيطر علي الجميع ويضمن ولاءهم ولو بالقوة والعنف في البداية وبمجرد أن يجلس علي العرش يبدأ في تحقيق العديد من الإصلاحات والانتصارات والأمجاد ليؤكد لنفسه وللأمة كلها أنه كان علي حق عندما أصر علي تولي السلطة والتخلص من الخصوم

**الصراع علي السلطة مغامرة كبري :**

يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشهيرة :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا، لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا في المَعَالي نُفُوسُنَا، و منْ خطبَ الحسناءَ لمْ يغلها المهرُ

العرش أو القبر ، يا لها من مغامرة كبري غير مأمونة العواقب ، فهل تستحق ؟ فمن يتأمل هذا المعني لابد أن يفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قرار المنافسة علي العرش ، ومن المؤكد أنه قرار صعب يحتاج إلي جرأة وقوة عزيمة وإرادة صلبة فالبقاء للأقوي دائماً فهي ليست نزهة خلوية أو مسابقة رياضية فالخسارة فيها تعني الموت وقد يسبق هذا الموت ألوان من العذاب فالحبس وحده في انتظار القتل يقتل المحبوس كل لحظة أثناء حبسه ، وبالتالي فالقرار صعب ومصيري ، فما الذي يستحق كل هذا العناء ، وفي هذا الصراع قد تكون جميع الأساليب مشروعة فالمسألة حياة أو موت فمن الممكن استخدام الخداع والمكر وبالتالي تنعدم الثقة بالآخرين ويرتاب الجميع في سلوك الجميع فقد تأتي الطعنة من الخلف ومن أقرب الناس إليك ، وقد يتم القتل لمجرد استشعار نية القتل من الطرف الآخر فلا يوجد وقت للتحقق من ذلك أو التفكير في وسائل أخري ، إن كل هذا يجعلك تشعر بالإشفاق علي هؤلاء المساكين الذين يدخلون في هذا الصراع ، فالمماليك حياتهم عبارة عن سلسلة من المعارك ومنازلهم هي صهوات جيادهم وصوت ضرب السيوف هو الصوت الذي يطربهم ولمعانها يثيرهم كما أنشد عنترة بن شداد من قبل :

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ – مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها – لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

---

[171] كانت غالباً تحدث الصراعات علي الحكم عندما يفشل كبار الأمراء في الاتفاق علي سلطان محدد منهم ليحكم ولم يكن مقبولاً لديهم أن يحكم ابن السلطان الراحل لأنه لم ينشأ النشأة التي تعودوا عليها فهو ليس واحد منهم كما ذكرنا فكان يتولي الحكم لحين الاتفاق علي الملك الجديد وإذا لم يحدث هذا الاتفاق يبدأ الصراع علي الحكم بأشكاله المتعددة ودائماً وفي نهاية الأمر يصل إلي الحكم من أراد المولي عز وجل له الحكم فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء